مصطلحات حجاجية

د. مدقن هاجر

جامعة ورقلة (الجزائر)

الحجاج مفهوم متشعب ومتلبس على الدارسين لتشعب مجالاته << وتعدد استعمالاته وتباين مرجعياته: الخطاب، القضاء، الفلسفة، [...] يستمد معناه وحدوده ووظائفه من مرجعية خطابية محددة، ومن خصوصية الحقل التواصلي الذي يندمج في استراتيجياته [...] ولا غرابة والحالة هذه أن هناك حجاجا خطابيا (لسانيا)، وخطابيا (بلاغيا)، وآخر قضائيا أو سياسيا أو فلسفيا ....إلخ >>[1].

<< ذلك الخطاب الصريح أو الضمني الذي يستهدف الإقناع والإفحام معا، مهما كان متلقي هذا الخطاب، ومهما كانت الطريقة المتبعة في ذلك >>[2].

<< إن الخطاب الحجاجي موجه للتأثير على آراء وسلوكات المخاطب أو المستمع وذلك بجعل أي قول مدعم صالحا أو مقبولا (النتيجة) وذلك بمختلف الوسائل، بالنظر لقول آخر (الحجة، المعطاة، الأسباب). وعلى سبيل التعريف نقول أن المعطاة – الحجة تهدف إلى إثبات أو نقض قضية >>.[3]

<< حد الحجاج أنه كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها >>[4].

هذه المفاهيم المتنوعة؛ والمتفقة في آن معا على سيرورة العملية الحجاجية وهدفها، تخلق تنوعا على مستوى المصطلحات الحجاجية انطلاقا من أنواع النصوص، وأدوات التحليل، ونتائج هذا التحليل، وفي ما يليه مجموعة من هذه المصطلحات:

***النصوص الحجاجية المختلطة:** وهي نصوص متفجرة (المقال الصحافي مثلا).

1. **النصوص الحجاجية محكمة البناء:** وهي عدة نماذج:

أ.**نصوص ذات توجه برهاني:** كثرة الروابط المنطقية، الاستقراء، الاستنتاج، القياس.

ب. نصوص ذات توجه عرضي: نموذج قريب من النصوص العرضية، ويركز على مدى سير الخبر في النص.

ج. نصوص ذات توجه حواري: طابع جدلي، تتبع مختلف الأصوات والسمات القولية (Traits énonciatifs).

	النص الحجاجي	النصوص الحجاجية الأكثر إحكاما		
	النموذج 1	النموذج 2 توجه برهاني	النموذج 3 توجه عرضي	النموذج 4 توجه حواري
الخصائص الأساسية	كتابة متفجرة استطراد انسجام سطحي	بناء و مسار منطقي	حياد ظاهري الاعتماد على المعلومات (الخبر)	حوار حجاجي للأصوات الموجودة (دحض، تنازل، تهكم .....إلخ).
وسائل التحليل الأساسية	//	إجراءات الاستدلال، الروابط المنطقية	مسار المعلومة (الموضوعات، المحمولات)	دراسة النظام القولي Système énonciatif

وهذه الخصائص العامة للنصوص تحدد لها شبكة قراءة خاصة بها، تعتمد في الأساس على البحث عن القرائن النصية التي تقدم بتحليلها فرضيات التفسير الأولية، وتصنف هذه القرائن في مجالات ثلاثة كبرى:

1–قرائن القول Les indices de l'énonciation: تظهر وضعية المحاج بالنسبة للقول على مستوى اللغة؛ أي مستوى السمات الذاتية، كأسماء الإشارة، نظام الزمن، علامات التحديد الزمني (هنا) و(الآن) ...، والسمات الدالة على مدى توافق صاحب القول (المتلفظ) بمضامين الأقوال.

2–قرائن التنظيم Les indices de l'organisation: تعين على معرفة الأطروحات ومدى تناسق الحجج، من الناحية الخارجية تقديم النص: (العناوين الخط ....إلخ)، أو تتبع السير الموضوعاتي في النصوص العرضية، والترابط الحجاجية (أو المنطقية) في النموذج البرهاني وكل ما يدل على المناحي الحجاجية.

3–قرائن المعجم Les indices de lexique: تتمثل في مراعاة التقابل في وجهات النظر وما ينتج عنه من مفردات متضادة لكونها تعكس تضادا في الأطروحات. وبالنسبة للنص الحجاجي، فهو ينسب مفردات التّمعن والملاحظة الصّارمة والأدلة الإحصائية للأطروحة المقترحة، بينما يربط الأطروحة المرفوضة بكل ماله علاقة بالوهم والظن، ... .

ملاحظة النص	القولية Enonciation	المعجم Lexique	التنظيم Organisation
	ما هي الأقطاب القولية الحاضرة؟	على أي حقول معجمية متناقضة يحيل النص؟	ما هي العناصر التي تدل على تنظيم النص؟
	هل هناك تخصصات تبرز أولا وجهة نظر معينة؟	هل يمكن الوقوف في النص على شبكات دلالية متقابلة؟	التقديم الشكلي (الخط والعلامة والنقط)، السير الموضوعاتي. الروابط الحجاجية. الوسائل البلاغية.
ديناميــة النص		كيف تتوزع مختلف القرائن؟ هل هناك تطورات تعلمنا عن سير النص؟	
الـــدورة الحجاجية		ما هي الأطروحات ؟ هل هي مصوغة صراحة؟ أين؟ ما هي مختلف الحجج؟ تنتمي لأي أطروحة؟ ما هي صفة تناسقها؟	

وتتجلى أهمية هذه القرينة أو تلك حسب النموذج الحجاجي المهمين.[5]

الحجاج التّجريدي: الذي ينبني على اعتبار الصورة وإلغاء المضمون والمقام، وهو من المراتب الدنيا للحجاج.

الحجاج التّوجيهي: وهو إقامة الدليل على الدعوى بالبناء على فعل التوجيه الذي يختص به المستدل، والتوجيه هنا هو إيصال المستدل حجته إلى غيره، وهذا النوع الحجاجي تدعمه النظرية اللسانية المعروفة باسم (نظرية أفعال الكلام)، والتي ترد الأفعال إلى القصد والفعل، وهما عماد التوجيه.

الحجاج التّقويمي: هو إثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المستدل على أن يجرد من نفسه ذاتا ثانية ينزلها منزلة المعترض على دعواه، أو ما يسمى بالتشخيص (في النظرية اللسانية)؛ أي أنه ينبني أصلا على اعتبار فعل الإلقاء وفعل التّلقي معا على سبيل الجمع والاستلزام.[6]

القياس أو القياس الخطابي: وهو القياس المضمر القائم على الاحتمالات التي تكفي في معالجة الأمور ومنها: التّعارض، والتّضاد، والمستقصي.

– **المثـل:** هو استقراء بلاغي أو حجّة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتهما، ويراد استنتاج نهاية إحداهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها، ويعتبر دعامة كبرى من دعائم الخطابة لما يحققه من إقناع وتأثير.

الشاهد: وهو من الحجج الجاهزة أو غير الصّناعية كما يسميها "أرسطو"، ويجمع: الأمثال والأبيات الشعرية والآيات القرآنية. وكان للشّواهد القرآنيّة ثلاثة استعمالات في الخطابة العربية القديمة، تمثلت في:

– الاحتجاج لقضية مختلف فيها.

– تمثيل حالة مشابهة.

– الاستئناس أو خلق الجوّ الدّيني في الخطبة؛ لتحقيق الإثارة وحسن الموقع في النفس.[7]

البرهنة: إثبات أمر بواسطة أمور أخرى بحسب قواعد المنطق الصّوري التي تقوم على عدد معّين من المبادئ البديهيّة التي لا تفتقر إلى برهان.

المحاجّـة: نشاط ذهني يتداوله السّائل والمعلّل؛ أي النّافي والمثبت حول معان هي في آن واحد معطيات نفسية اجتماعية، أي تبادل الحجج بغرض إثبات الرّأي الشّخصي، أو ردّ رأي الخصم، وغرض كلّ ذلك الإقناع، وحصول الاقتناع.[8]

الحجّة: تتميز بخاصّيتين:

أ– **إفادة الرّجوع أو القصد:** مشتقة من الفعل حج الذي من معانيه الرجوع ، وبذلك الحجة هي أمر نرجع إليه ونقصده، ولا نفعل ذلك إلاّ لحاجتنا إلى العمل به ، فهي الدّليل الذي يجب الرجوع إليه للعمل به .

ب– إفادة الغلبة: يدلّ الفعل (حجّ) على معنى (غلب)، فيكون مدلوله هو إلزام الغير بالحجّة، فيصير بذلك مغلوبا. فالحجّة بهذا دليل يقصد للعمل به ولتحصيل الغلبة على الخصم.[9]

البرهان: يتّصف بأربع خصائص:

أ–**التّواطؤ:** تكون ألفاظ صاحب البرهان التي يستعملها وقواعده التي يصوغها خالية من اللّبس الدّلالي، لتدلّ الألفاظ على معانيها بوجه واحد لا ثاني له، وهو ما يصطلح عليه بلفظ "التّواطؤ".

ب–الصورية: لا يستقيم الدّليل على أصول البرهان إلاّ إذا كان بالإمكان ردّه إلى جملة من الصّيغ والتّراكيب أو قل جملة من الصّور التي تستغني بشكلها وترتيبها عن اعتبار المضمون الدّلالي للألفاظ والعبارات التي استبدلت بها هذه الصّيغ والتّراكيب.

ج–القطعيّة: لمّا انبنى البرهان على التّواطؤ والصّورية، فقد ارتفع التّردّد والاحتمال عن النّتائج التي يتوصّل به إليها، بمعنى أنّ البرهان يفيد القطع.

د–الاستقلال: يستقلّ البرهان عن صاحبه ما إن ينتهي من صنعه كما يستقلّ عن المخاطب به حتى ولو كان حاضرا في تصوّره وبناء قواعده، وبالتّالي يتّضح أن لا تعلّق للبرهان بالمجال الذي يستعمل فيه، وإن كان هذا المجال هو الأصل في النّهوض به.[10]

التمثيل الحجاجي:

طريقة حجاجية تعلو قيمتها على مفهوم المشابهة المستهلك، حيث لا يرتبط التمثيل بعلاقة المشابهة دائما، وإنما يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان لها أن تكون مترابطة أبدا، ومن ثمة اعتبر

عاملا أساسيا في عملية الإبداع يستعمل في الحجاج (فهو قريب من الحجاج المقارني) دون أن تكون له علاقة بالمنطق الصوري، حيث لا يطرح معادلة صورية خالصة، ولكنه ينطلق من التجربة بهدف إفهام الفكرة، أو العمل على أن تكون الفكرة مقبولة، وذلك بنقلها من مجال إلى مجال مغاير، جريا على مبدأ الاستعارة...[11]

ويرى "بيرلمان" و" تيتيكاه" في مؤلفهما: (مصنَّف في الحجاج – الخطابة الجديدة)؛ أن للتمثيل دور مهم في الإبداع وفي الحجاج على حد سواء ومردّ ذلك أساسا إلى ما يتيحه من امتداد وتوسّع؛ إذ بواسطة الحامل يمكن للتمثيل أن يوضّح بنية الموضوع وأن يضعه في إطار مفهومي. لكن التمثيل في مجال الإبداع يتلف عنه في مجال البرهنة والحجاج من حيث اتساع مدى هذا التمثيل أو عدم اتساعه. ففي حين لا شئ يمنع من أن يطول التمثيل ويمتد في مجال الإبداع، يُطلب من التمثيل في مجال الحجاج أن يلتزم بحد معين وإلا فقد طاقته الإقناعية، إن إطالة التمثيل تكون أحيانا لغاية أن تثبت صحته، لكن تلك الإطالة قد تجعله عُرضة لتجريح المخاطب.[12]

ومن هذا حدد " روبريو " مجموعة من الخصائص العامة للتمثيل يمكن إجمالها فيما يلي:

1. يرتكز التمثيل على استدعاء صور تحكي أحداثا من أجل نقل أفكار مرجعية ذات قيمة رمزية .
2. تقوم العلاقة فيه على مماثلة تتحقق بين عناصر أو بنيات تنتمي إلى مجالات مختلفة.
3. يتجه نحو مخيلة الإبداع ويتجاوز اللغة وحدود الواقع ويفهم عن طريق تحريك الذهن ، مما يتطلب معالجة دينامية وإبداعية .
4. إن الأساس في التمثيل يكمن في العلاقة بين الموضوع والحامل (وجه الشبه phore) وتوتر العلاقة بينهما.

إن التمثيل بصفة عامة يعتبر منبعا للإبداع والأفكار الجديدة، وأصلا لكل الصور التخيلية، غير أنه قد يكون خاطئا، أو مرفوضا، أو غير مفهوم في الواقع، إذا خرج عن إطاره التداولي؛ إذ لا يمكن إقامة علاقة المشابهة انطلاقا من الخصائص العامة الملازمة، وإنما يتم ذلك عن طريق تفكيك الأجزاء الدقيقة لمكوني التمثيل (الموضوع والحامل phore)، واستعمال الخيط للربط بينهما، مثل المشابهة بين الطفل والبراءة...[13]

التشخيص:

يعرفه "جورج لايكوف" و"مارك جونسن" في كتابهما "الاستعارات التي نحيا بها" بأنه: < مقولة عامة تغطي عددا كبيرا من الاستعارات حيث تنتقي كل منها مظاهر مختلفة لشخص ما أو طرقا مختلفة للنظر إليه، وما تشترك فيه كل هذه الاستعارات أنها تسمح لنا بأن نعطي معنى للظواهر في هذا العالم عن طريق ما هو بشري، فنفهمها اعتمادا على محفزاتنا وأهدافنا وأنشطتنا وخصائصنا >.[14] يطلق عليه " بانفنيست" الخاصّية تلفّظية، أو الإطار التّشخيصي للتّلفظ؛ لاقتضاء التّلفظ كبنية حوارية لصورتين هما: مصدر التّلفظ وهدفه.[15]

بينما يصنفه " طه عبد الرحمن " نوعا من أنواع الحجاج تحت مسمى: " **الحجاج التقويمي**"؛ وهو إثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المستدل على أن يجرّد من نفسه ذاتا ثانية ينزّلها منزلة المعترض على دعواه؛ فها هنا لا يكتفي المستدلّ بالنّظر في فعل إلقاء الحجّة إلى المخاطب واقفا عند حدود ما يوجب عليه من ضوابط وما يقتضيه من شرائط، بل يتعدى ذلك إلى النّظر في فعل التلقي باعتباره هو نفسه أول متلق لما يلقي، فيبني أدلّته أيضا على مقتضى ما يتعين على المستدل له أن يقوم به، مستبقا استفساراته واعتراضاته ومستحضرا مختلف الأجوبة عليها ومستكشفا إمكانات تقبّلها واقتناع المخاطب بها. وهكذا، فإن المستدل يتعاطى لتقويم دليله بإقامة حوار حقيقي بينه وبين نفسه، ومراعيا فيه كل مستلزماته التّخاطبية من قيود تواصلية وحدود تعامليّة، حتى كأنه عيّن المستدلّ له في الاعتراض على نفسه [16] فهو كحجاج ليس في النهاية سوى دراسة لطبيعة العقول - في رأي " بيرلمان " - ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها، والإصغاء إليها، ثم محاولة حيازة انسجامها الإيجابي (**L'adhésion Positive**) والتحامها مع الطّرح المقدّم، فإذا لم توضع هذه الأمور النفسية والاجتماعية في الحسبان فإن الحجاج يكون بلا غاية ولا تأثير، والنقاش أو الحوار من مقتضيات هذا التأثير أو الإقناع ، وهو يكون – الحوار أو النّقاش – إما :

صريحا: عند اتّخاذ مواقف علنية معيّنة .

ضمنيّا: عندما يجرد المتكلّم (خطيبا أو كاتبا) من نفسه محاججا (محاورا) خاصّا يتناول معه هموم المخاطبين، ويساعده على تبيّن هفوات الطّرح، وأماكن الضّعف فيه، كي لا يقع في بعض العيوب الخطابيّة أو الكتابيّة التي تدخل التّناقض والتّفكّك إلى النّصوص.[17]

المقام:مقام الخطاب مجموع الظروف التي نشأ التعبير في وسطها (الكتابي أوالشفاهي). ويجب أن نفهم من هذا المحيط المادي والاجتماعي الذي يأخذ الظرف فيه مكانه، والصورة التي تكون للمتخاطبين عنه، وهوية هؤلاء، والفكرة التي يصطنعها كل واحد عن الآخر (بما في ذلك التمثيل الذي يمتلكه كل واحد عما يفكر به الآخر)، والأحداث التي سبقت التعبير (لاسيما العلاقات التي يمتلكها المتخاطبون من قبل، وتبادلات الكلام حيث يحشر التعبير المعني نفسه). وإننا لنعرف التداولية غالبا بوصفها دراسة لهيمنة المقام على معنى العبارة.[18]

أما في التصور "البيرلماني"، فقد حظي المقام باهتمام كبير باعتباره البؤرة التي تلتقي فيها جميع العناصر الحجاجية من مقدرات برهانية وحقائق علمية وقرائن بلاغية وقيم بشتى أقسامها وعلاقة هذه القيم بمراتب الكائنات والأشخاص المعنيين بخطاب ما. وذلك بوصف هذه العناصر المذكورة أسسا حجاجيّة لا بدّ من طرحها بصيغ مختلفة في "المقام" نظرا لأن المخاطبين يشتركون في الإقرار بأبرز معالمها، وإن ظل ذلك الإقرار متباينا بحسب طبيعة الشخص وتكوينه.

كما أنه على المتكلم التركيز على معايير الأولوية فيما يتعلق بالعلاقة مع المقام والموضوع معا. ويدخل في هذه المقدمات ما يرد ذكره من حقائق فعلية وأحداث معينة لا يشك المخاطبون في ثبوتيتها المرجعية، لكن ذكرها في الخطاب أو النص لا بد أن يكون له طابع حجاجي، ولن يكون كذلك إلا إذا أحدث ذكر تلك الحقائق صراعا جدليا مع

أحداث أخرى كان المخاطب يتوقع ذكرها، لكن المتكلم رغب عنها لأجل خلق إطار منطقي للحقائق التي اختارها، وذلك لتصير فعلا هي الملائمة للمقام.[19]

ويقدم "بيرلمان" تصورين أساسين للمقام:

* فهو تارة يعتبره الإطار المحدد للخطاب المستوعب لكل محتويات العملية الإبداعية، ولكل المشاركين فيها.

* وتارة ثانية يعتبره تلك المقدمات ذات النظام العام التي تساعد المبدعين في بناء الحجج وترتيب القيم.

والمقام في التصور الأخير(الثاني)، تجريدي أساسه المجاز والتلميح، لذا يمكن اعتباره < قيمة بلاغية ذات وظائف أسلوبية مساهمة في خلق الانسجام التّام بين الشكل والمحتوى >.[20]

الرّوابط الحجاجّية: إنّ تقدير المتكلم أو المرسل لردود أفعال المخاطب أو المرسل إليه، يجعله يستنبط حججا افتراضية بناء على ذلك التقدير، ولأن خطابه الحجاجي هذا يكون دوما مواجهة لخطاب ضدّ حقيقي أو تقديري (سواء كان طرحا واقعا وهو بالتالي مرفوض، أو مقدّرا يتوقّعه المتكلم ويفترض وجوده في ذهن المتلقي)، فإنه يسهم في تحقيق النّشاط التّواصلي الذي قد تفرضه البنية اللّغوية ذاتها، أو السّياق النّصي، وقد يتعين بطريقة مباشرة عن طريق:

"**الرّوابط الحجاجية Connecteurs argumentatifs**" التي تصل المقدّمة بالاستنتاج، وتتدخّل في توجيه دلالة المحاججة،[21] وتكون في شكل عناصر نحوية مثل أدوات الاستئناف(الواو، الفاء، لكن، إذن، ...).[22]

هذه بعض المصطلحات والمفاهيم المنتقاة والمتداولة في أعمال ومراجع عدَّة ، لكن هذا لا يمنع من وجود كثير غيرها تتراوح وتتعدد بتعدد النظريات وتوجهات أصحابها .

الهوامش والإحالات:

[1] حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي (عناصر استقصاء نظري)، عالم الفكر، مجلة دورية محكمة، الكويت، ع1 سبتمبر 2001، ص ص: 97، 98.

[2] محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند "بيرلمان" وتطوره في البلاغة المعاصرة، عالم الفكر، ع2، يناير/ مارس، 200 م، ص: 53.

[3] J. M. Adam. les texte : types et prototypes (récit , description , argumentation ،explication et dialogue) , Nathan , Paris , 1992 : p . 104

[4] طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1998 م، ص: 226.

[5] الحواس مسعودي، النصوص الحجاجية، مجلة اللغة والأدب، ع 14، ديسمبر 1999 م، ص ص: 275، 278، 279، 283.

[6] طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص ص: 227 ، 228.

[7] محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، إفريقيا الشرق، المغرب، لبنان، ط2، 2002م .

[8] محمود يعقوبي، أصول الخطاب الفلسفي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995 م، ص ص: 09، 10.

[9] طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص ص: 137.

[10] نفسه، ص ص: 137، 138.

[11] عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، المغرب، د ط، 2006م، ص ص: 97، 98.

[12] عبد الله صولة، الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال" مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة" لبرلمان وتيتيكاه، من كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إنجاز: فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف: حمَّادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية منوبة، تونس، ص: 342.

[13] عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، ص: 98.

[14] جورج لايكوف، مارك جونسن، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1996، ص: 54.

[15] حبيب أعراب، الحجاج و الاستدلال الحجاجي، ص: 104.

[16] طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص : 228 .

[17] محمد سالم ولد محمد الأمين ، مفهوم الحجاج عند (بيرلمان)، ص ص: 68، 69.

[18] أزوالد ديكرو، جان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان (طبعة منقحة)، ترجمة : د. منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، ط2، 2007 م ص: 677.

[19] محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند (بيرلمان)، ص: 83.

[20] السابق، ص ص: 85، 86.

[21] آمنة بلعلى، تحليل الخطاب في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2002 م، ص: 117.

[22] شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، من كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إنجاز: فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف: حمَّادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية منوبة، تونس، ص ص: 376، 377.